الحـوار: الـمفهـوم والـمنهـج

obeikan.com

obeikan.com

المبحث الأول

الحوار في اللغة والقرآن الكريم

▪ "الحوار" لُغةً:

يشير التعريف اللغوي للجذر "حَورَ" إلى دلالات عدة منها: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، وهي دلالة تقترب من دلالة لفظة "حوار" التي تدل على: التحادث والتجاوب القولي، فالمحاورة: المجاوبة، واستحاره: استنطقه[٦]، والمحاورة: حسن الحوار ومنها أيضًا: كلّمتُه فما ردّ على محورةٍ (أي كلام)[٧]، فهي تعطي في طياتها دلالة خلقية تتعلق بكيفية الحوار وأدبه، وهذا صحيح فالحوار يستلزم طرفين أو أكثر، ولا يتم إلا في جو أدبي يتيح السمع والقول بين المتحاورين. وتتسع دلالة الحوار معجميًا فتكون بمعنى: جادله [٨]، والجدال يعطي فرصة للقول والمراجعة بين المتحاورين.

ومن هنا فإن دلالة الجذر اللغوي "حور" بمعنى الرجوع، تتفق كثيرًا مع دلالة الحوار، وإن كانت الأولى أعمّ وأشمل للأشياء والبشر، أما الثانية فهي تقتصر على الحوار بين البشر غالبًا، فالرجوع عن الشيء وإلى الشيء، يدخل ضمن معطيات الحوار، فالحوار يعطي الفرصة لتعديل الرأي والرجوع عن مواقف وأمور، وهذا ما أشارت إليه المعاجم اللغوية فـ"حوّر الكلام أي غيّره"[٩] والتغيير يكون تبعًا لمستجدات في العقل أو الحياة أو الأشياء وهذا يعني الرجوع أيضًا، وأيضًا "والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة وهم يتحاورون أي

---

٦) لسان العرب، ابن منظور، إعداد : يوسف خياط، نديم مرعشلي، دار صادر، ودار لسان العرب، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ج١، ص٧٥٠.

٧) أساس البلاغة، الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر، تحقيق : عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ص٩٨.

٨) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٣، دون تاريخ، ج١، ص٢١٢.

٩) السابق، ص٢١٢.

يتراجعون الكلام" [١٠]، وأيضًا "ما أحار جوابًا أي ما رجع" [١١]، وكذلك: "تحاوروا تراجعوا الكلام بينهم"[١٢]، وأيضًا ومن معاني الجذر اللغوي "حور" ما يفيد الحيرة من "حار" بدلالة "لم يهتد لسبيله، فهو حيران وحائر وهي حيراء" [١٣] فهو يعطي دلالة مناقضة فليس كل حوار يأتي بالجديد، فقد يزيد المرء ضلالاً.

والحوار حقيقة مجتمعية إنسانية، فأينما وجد المجتمع البشري، وجد الحوار، لأن اللغة قاسم مشترك بين البشر، ومن وظائف اللغة التعبير عن حاجات الإنسان، البسيطة المتصلة بحاجاته الإنسانية من طعام وشراب وغيرهما، أو في المستويات العليا من النقاش الفكري والديني والاجتماعي. فالحوار "حديث يدور بين اثنين على الأقل ويتناول شتى الموضوعات... ويفترض فيه الإبانة عن المواقف والكشف عن خبايا النفس"[١٤]، ومن هنا، انتقل الحوار إلى ما ينتجه العقل البشري من آداب وحكمة ونصوص[١٥]، ذلك أن الأدب صورة وانعكاس بشكل مباشر أو غير مباشر من النشاط الإنساني العقلي واللغوي والاجتماعي يكاد يكون الحوار قاسمًا مشتركًا بين سائر الأشكال الأدبية مثل: المسرحية والقصة والرواية والمناظرة والمناصحة والحكمة والعظة وأيضًا في الشعر فهناك الكثير من القصائد التي تشمل الشكل القصصي الحواري، وهناك حوار شعري يكون بين الشعراء أنفسهم.

---

١٠) لسان العرب، مرجع سابق، ج١، ص٧٥٠. وجاء في دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي،دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٩٧١م، مج٣، ص٦٤٧ " تحاور الناس: تراجعوا الكلام وتداولوه ".

١١) أساس البلاغة، مرجع سابق، ص٩٨.

١٢) المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص٢١٢.

١٣) القاموس المحيط ، الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ص٤٨٨.

١٤) المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة أولى، ١٩٧٩م، ص١٠٠.

١٥) كذلك يمكن أن يكون الحوار بين الأديب (منشيء النص) ونفسه، أو من ينزله مقام نفسه مثل ملهمه أو شخصية خيالية، وعموما فإن الحوار أسلوب طاغ وشائع في المسرحيات والروايات وغيرها. المرجع السابق، ص١٠٠.

- **"الحوار" في القرآن الكريم:**

في القرآن الكريم الكثير من الآيات ذات الشكل الحواري، التي تزخر بعديد من الدلالات، ولكننا سنتوقف عند الآيات التي أوردت لفظة "حوار"، وهي ثلاث آيات فقط، إلا تعطي إيحاءات تقترب من الطابع الشمولي لدلالة الحوار إنسانيًا ودعويًا ومنهجيًا. الآية الأولى قوله جلَّ شأنه: { **وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً** } [١٦].

والآية الثانية قوله تعالى في نفس السورة ونفس القصة القرآنية: { **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً**}[١٧].

والآية الثالثة قوله تبارك وتعالى: { **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } [١٨].

وردت الآيتان الأوليان في سياق قصة قرآنية تدور بين شخصين: مؤمن وكافر والخطاب القرآني موجه في مطلع القصة إلى الرسول محمد ﷺ: {**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً**}[١٩] ، أي: "اضرب يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه"[٢٠]، فالقصة – شأن القرآن الكريم كله – خطاب قرآني من الله جل وعلا إلى نبيه الكريم ﷺ، ولكن الدلالة هنا دلالة "المَثل" للعظة والعبرة، والقصة موجهة للمؤمنين والكافرين والفاسقين والزائغين عن الهدى، في كل زمان ومكان، ففي طياتها الحوار بين الله ورسوله، وبين الله وعباده، وبين الرسول وجماعة المؤمنين، وبين الرسول والكفار والعُصاة.

---

١٦) سورة الكهف، الآية (٣٤).
١٧) سورة الكهف، الآية (٣٧).
١٨) سورة المجادلة، الآية (١).
١٩) سورة الكهف، الآية (٣٢).
٢٠) جامع البيان في أحكام القرآن (تفسير الطبري)، الطبري، أبو جعفر محمد ابن جرير، دار الحديث، القاهرة، دون طبعة، دون تاريخ، مج٨، ج١٥، ص١٦٠.

وموجز القصة أن الله عزَّ شأنه أنعم على عبد من عباده ببستانين من أعناب، محفوفة بنخيل، وأنبت بين شجرهما زرعًا، أي أن حديقة الكافر متعددة الخيرات والثمار، بينما ظلَّ المؤمن على قلة في المال والولد والعطاء [٢١]، فتباهى الكافر بالمال والولد والجاه والنفر، وكفر بالله تعالى الخالق الرازق، وأنكر البعث يوم القيامة، وقد تمَّ حوار بين المؤمن والكافر، { **فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً** } فالكافر يحاور المؤمن مغترا بجاهه وماله ونفره وولده، فقد جاءت لفظة الحوار حاملة دلالة البوح بالفخر والكبر، مفصحة عما يجول في نفس الكافر، وما يعتمل في صدره وهو يرى الثمر محصَدًا، موفورا، غزيرا، إنها لحظة اغترار الذات الكافرة؛ بالرزق الوفير، فجاء رد صاحبه المؤمن { **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً** } جاء حوار المؤمن هادئًا، بصيغة الاستفهام "أكفرتَ" الدال على التعجب والاستنكار، مذكِّرًا الكافر بأصله البسيط التافه: "تراب" و" نطفة"، ثم صار رجلاً مكتمل البدن والعقل والنفس والرزق، وما ذكره المؤمن عقلاني يتفق مع بديهيات التصور البشري للإنسان؛ فهو يذكِّر الكافر بأصله في الخلق، وإلى ما يشترك فيه مع سائر البشر جميعًا الذين هم خلق الله تعالى، وأن ما تميز به من رزق فهو عطاء الله تعالى ومنّته عليه.

فلفظة "يحاوره" في كلتا الآيتين، حملت الدلالة المعجمية وهي: يراجعه في الكلام ويجاوبه [٢٢] وأيضًا بمعنى "يخاطبه ويكلمه" [٢٣]. ولكنها في الآية الأولى زادت فيها دلالة البوح والإفصاح بالفخر والتكبر على المؤمن، ونسبة ما أنعم الله

---

٢١) اختلف في اسم هذين الرجلين وأصلهما : فقال الكلبي : نزلت في أخوين من أهل مكة مخزومين أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة زوج أم سلمة رضي الله عنهما، والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في الصافات، ورث كل واحد أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدهما ماله في سبيل الله وطلب من أخيه شيئا فرفض الأخ، وقيل نزلت في النبي ﷺ وأهل مكة، وقيل هو مثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر. راجع : تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، مج٥، ص١٠٠.

٢٢) السابق، مج٥، ص١٠٠،

٢٣) تفسير الطبري، ج١٥، ص١٦٢.

به عليه إلى نفسه، وهذا ما أكده ابن كثير "أي يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس" [٢٤]، أما دلالة لفظة "حاوره" الثانية في خطاب المؤمن فهي مخصصة بدلالة النقاش والوعظ، وكما يؤكد ابن كثير فقد جاء اللفظ "مخبرًا عما أجابه به صاحبه المؤمن، واعظًا له، وزاجرًا عما هو فيه من الكفر بالله والاعتزاز" [٢٥].

وبنظرة شمولية إلى القصة التي وردت فيها اللفظتان، نجد أنها تقدِّم قالبًا حواريًا، دعويًا، بين طرفي النقيض في المجتمع البشري؛ المؤمن بالله: الخالق الرازق المعطي، الموقن بعقاب الله النازل بالكافر، وإن تأخر قليلاً، وبين الكافر المغتر بما أفاء الله عليه، ويظن أن ما عنده إنما هو بذكائه، وجهده فقط، فكفر بالله وبالحساب. وقد جاءت لفظة "ثمر" بدلالة أكثر شمولية فهي تعني: "المال الكثير وصنوف الأموال" [٢٦]، ذلك أن الثمار المزروعة مجلبة للمال ومتاع الدنيا، كما أن الثمار زاهية اللون، بكثرتها وتنوعها، تغري النفس، وتطمع العين فيها، فتباهي النفس بشجرها وأرضها وتنسب الخير لصاحبها.

جاءت لفظة "حوار" في موضع ثالث، في مفتتح سورة المجادلة، وعند النظر لاسم السورة، نرى كيف أنها في عنوانها ومناسبة نزولها، تحمل الحوارية منذ مفتتحها [٢٧]، فهي تتناول حوار امرأة من الأنصار مع الرسول ﷺ ومراجعتها في الكلام له وتكاد تقترب دلالة اسم السورة مع المحاورة في قوله تعالى **{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }**، والآيات ترتبط بحادثة بعينها تخص خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بنت الصامت [٢٨] وقد أراد زوجها مواقعتها يومًا فأبت فغضب عليها، وظاهر منها،

---

٢٤) تفسير القرآن العظيم، (تفسير ابن كثير)، للإمام ابن الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، المكتب الجامعي الحديث، الأسكندرية، مصر، دون طبعة، دون تاريخ، مج٣، ص٩٧.

٢٥) السابق، مج٣، ص٩٨.

٢٦) تفسير الطبري، ج١٥، ص١٦١.

٢٧) المجادلة بفتح الدال تعني المحاورة، وبالكسر تعني المرأة المحاورة. والجدال القدرة على الحوار والمراجعة، القاموس المحيط، مرجع سابق ص١٢٦١، ولا يقصد به الجدال العقيم الذي لا يفيد العقول، بل يفسدها ويشتت القلوب.

٢٨) اختلف أهل العلم في اسمها ونسبها، فقال بعضهم خولة بنت ثعلبة، وقال بعضهم : خويلة بنت خويلد، وقال آخرون خويلة بنت الصامت، وقال آخرون خويلة ابنة الدليج. راجع : تفسير الطبري، مرجع سابق، مج١٢، ج٢٨، ص٢. وقيل خولة بنت حكيم، وقيل اسمها جميلة، وخولة أصح، وزوجها أوس أخو عبادة بن الصامت، تفسير القرطبي، مرجع سابق، مج٩، ج١٧، ص١٧٥.

فأتت رسول الله ﷺ وقالت يا رسول الله: إن أوسًا ظاهر مني (أي قال لها: أنتِ عليّ كظهر أمي)، بعد أن كبرت سني ورقَّ عظمي، وإن لي منه صبية صغارا، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا، فما ترى؟! فقال لها ﷺ ما أراكِ إلا قد حُرِمتِ عليه، فقالت: يا رسول الله، والله ما ذكر طلاقًا وهو أبو ولدي، وأحب الناس إليَّ[٢٩]. فجعل رسول الله ﷺ يعيد قوله، وهي تكرِّر قولها، فما زالت تراجعه وتقول: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وابن عمي وقد نفضت له بطني[٣٠] وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها: " يا رسول الله أكل مالي، وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية[٣١]. قالت (خولة): فوالله ما برحتُ حتى نزل فيّ قرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سرى عنه، فقال لي: يا خويلة قد أنزل الله فيكِ وفي صاحبك قرآنا، ثم قرأ عليَّ (الآيات إلى قوله تعالى وللكافرين عذاب أليم)، قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: مُريه فليعتق رقبة، قالت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: فليصم شهرين متتابعين، قالت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، فقال رسول الله ﷺ: فإنا سنعينه بعَرَقٍ من تمر، قالت: وأنا سأعينه بعرق آخر، قال ﷺ: قد أصبتِ وأحسنتِ، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمكِ خيرا[٣٢].

في القصة المتقدمة وردت لفظة "تحاوركما" في الآية الأولى في مقام دال على الحوار بين المرأة المؤمنة التي تخشى أن تفقد زوجها، وتضيع أولادها، والرسول الكريم ﷺ الذي أوضح لها ما كان سائدًا في الجاهلية؛ أنها صارت محرَّمة عليه، وهي تحاوره، أي تراجعه في الكلام، وتحاول أن تقدم تبريرًا منطقيًا: فهو لم

---

٢٩) تفسير الطبري، مج١٢، ج٢٨، ص٢. وصفوة التفاسير، الصابوني، محمد علي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م، مج٣، ص١٢٩٣.

٣٠) تفسير القرطبي، ج١٧، ص١٧٦.

٣١) تفسير ابن كثير، مج ٤، ص٣٧٥، وكان زوجها أوس امرءا به لمم، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظاهر من امرأته، وإذا ذهب لم يقل شيئا، راجع أيضا : تفسير القرطبي، ج١٧، ص١٧٦.

٣٢) تفسير ابن كثير، مج٤، ص٣٧٦. وزاد القرطبي أن رسول الله ﷺ نادى أوسًا وقال له: اعتق رقبة، قال مالي بذلك يدان، قال فصم شهرين متتابعين. قال : أما إني إذا أخطأني أن آكل في يوم ثلاث مرات يكل بصري (يتعب بصره ويغشى)، قال : فأطعم ستين مسكينا، قال : ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة. فأعانه رسول الله بخمسة عشر صاعا، حتى جمع الله له والله غفور رحيم. تفسير القرطبي، ج١٧، ص١٧٦وذكر ذلك أيضا الطبري " فلما قضى الوحي، قال : ادعي زوجكِ فتلا عليه رسول الله.."، مج١٢، ج٢٨، ص٣

يطلقها بلفظة الطلاق، وتخشى على أولادها، وترى أنها في خريف العمر؛ قد ضعف جسمها ووهن عظمها، وعندما وجدت أن حكم الرسول واحد، راحت تشتكي إلى الله العظيم، فاستجاب الله لها من فوق سبع سموات. هنا نجد أن المحاورة كانت بشكل مباشر بين الرسول والمرأة ثم زوجها، ثم أنزل المولى تعالى جوابًا على شكوى المرأة، وهذا يعطينا صورة جلية: كيف كانت النسوة يتعاملن مع الرسول، ويراجعنه، بشكل عقلاني؛ يعرِضنَّ المشكلة، وأبعادها، وآثارها المستقبلية، وآلامهن النفسية. كما أن الرسول يدعو الزوج، ويعرض عليه الحل الرباني لمشكلته، والرجل فقير غير قادر على عتق رقبة أو التصدق على ستين مسكيناً، وكبير السن لا يستطيع صوم ستين يومًا، فأعانه الرسول ﷺ، وأعانته زوجته، في تواصل إنساني حميم.

فيشاء المولى أن يكون الحوار (لفظًا) قد ورد في موضعين؛ الأول في قصة المؤمن الفقير، والغني الكافر، في القضية التي تشكل المرتكز الأساسي في دعوات الرسل والأنبياء ألا وهي الإيمان بالله تعالى الخالق المحيي المميت الرازق، وهي قصة ذات عموم في التناول، تتجاوز الإطار الزماني والمكاني، لتكون شاهدة على اغترار الإنسان ونسيانه عطايا الله وفيئه. أما القصة الثانية فهي ذات خصوصية في الطرح، محدودة بزمان ومكان وأشخاص، وتتناول قضية اجتماعية مؤرقة، تهدد البيت المسلم في لحظات زيغ الرجل ولممه، وتعالج بعضًا من آثار جاهلية العرب، كما أن الرسول ﷺ – موضع بحثنا – كان طرفًا مباشرًا فيها، والمرأة – إنسانة وزوجة ومؤمنة وأُمًّا– تحاور الرسول، وتجادله، لتقدِّم لنا صورة خالدة عن مكانة المرأة في الإسلام ودورها في رعاية الأسرة وصيانتها.

وفي المبحث الثاني، سيتم التطرق إلى الحوار بوصفه منهجًا إنسانيًا عالي المستوى، يحقق الاتصال بين البشر، وله الكثير من الأبعاد النفسية والاجتماعية والفكرية، وبعبارة أخرى: إن الحوار هو الوسيلة المثلى والتجلي الأروع للتواصل بين البشر فكريًا ونفسيًا واجتماعيًا، وقد كانت سيرة المصطفى ﷺ النموذج والقدوة لسائر البشر في هذا التواصل.

المبحث الثاني

الحوار منهج علمي إسلامي

الحوار في أبسط أشكاله: تحادث الناس مع بعضهم، فحيثما وجد الناس وتجمعوا فهم يتحاورون من أجل قضاء حاجاتهم، وتبادل الرأي في كل ما يشغل البشر من هموم ومشترك وقضايا وتواصل.

وعند النظر إلى الحوار – بوصفه عملية اتصال بشري – نجده لا يتحقق إلا في "وجود متكلم، ومخاطب، ولابد فيه من تبادل الكلام، ومراجعته" [٣٣]، وهذا يعني أن الحوار لا يتم إلا في وجود لغة مشتركة بين المتحاورين، وأيضًا وجود دوافع ومبررات للحوار بين الناس، وهو هنا يتجاوز الحوار المنطوق الشفاهي ليشمل الكتابي وغيره من وسائل التواصل، ولا يكون حوارًا إلا بتبادل الكلام، وتراجع بين المتحاورين، أي نقاش.

إن الحوار لا يتم إلا في جماعة بشرية متكلمة، بينهم لغة مشتركة، وهو ما يسمى "الاتصال" بين أعضاء الجماعة، وهو يحِّدد – من قضايا الحوار أنماطه – مدى كفاءة الجماعة، المجتمع أيا كان حجمه العددي، في إنجاز مهامها، لأنه بدون اتصال بين أعضاء الجماعة، لن يستطيع أفرادها أن يقوموا بوظائفهم، بشكل فعال، وكلما كان الاتصال ميسرًا، بكفاءة، ينعكس على تفاعل أعضاء الجماعة وتماسكها ورضا أعضائها [٣٤]. فالراصد لأي جماعة إنسانية، يجد أن الحوار هو المظهر الأولي والأساسي في قياس مدى تفاعلهم وحميميتهم، فنمط الاتصال بين الأفراد يحدد درجة المودة بينهم، فحينما لا تكون هناك قناة مشتركة بين شخصين –على الأقل – في الجماعة، فغالبًا لن تكون بينهما فرصة متاحة لتبادل المشاعر والأفكار وهو ما يجعل كلاً منهما بالنسبة بمثابة غرباء، وحينما تتم العلاقة بينهما من خلال

---

٣٣) المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، دون طبعة، دون تاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج١، ص٥٠١.

٣٤) انظر : موسوعة العلوم السياسية، تحرير : د. محمد محمود ربيع، د. إسماعيل صبري مقلد، جامعة الكويت، ١٩٩٣، ١٩٩٤م، ج١، ص٤٨٢.

وسيط، فإن طبيعة التفاعل وناتج هذا التفاعل سيتأثر بما سيتركه هذا الوسيط على مشاعر وأفكار كل من الفردين [٣٥].

ففي منظور الدراسات الاجتماعية الحديثة، فإن الحوار هو اتصال بين أبناء الجماعة الواحدة، والاتصال هو: "تفاعل اجتماعي قائم على مرور الرسائل بين الفاعلين الاجتماعيين، ويشير هذا الاتصال إلى نوع من المبادرة التي يتعين القيام بها وإلى نمط من التلقي ومن المضمون والتأثير" [٣٦]

والتعريف السابق للاتصال، يعطي أبعادًا علمية ومحددات لمفهوم الحوار، فقد تطورت النظرة إلى الحوار من مجرد مشافهة بين المتكلمين إلى تحليل علمي في بنيته ومكوناته، فحيثما وجدت الجماعة الإنسانية، وجِدَ الحوار، بكافة مستوياته وأشكاله، وعندما يصبح الحوار "رسالة بين الفاعلين الاجتماعيين" فهو لا يكون مجرد كلمات أو جمل تُلقى، بل يصبح ذا هدف ومضمون، والرسالة تستلزم مرسلاً، ومستقبلاً، ومضموناً، ومن ثم تأثيرًا متوقعًا، وعليه يدخل الحوار ضمن دائرة العلمية، عندما يتم تحليله، والوقوف على أبعاده ومراميه.

ويعمِّق علم النفس النظرة إلى الحوار Dialogue، فينظر إليه بوصفه بنية صوتية تستوجب التحليل والوقوف عند مغزاه؛ ذلك أن "أصوات المتحاثين في بنية حوارية معينة تتجاوب، ومداخلاتهم تتوالى محتفظة باستقلالها، ومعظم الألسنيين (علماء اللغة المعاصرين) يعترفون اليوم بأن هذه البنية هي في الأساس البيان، حتى في اللغة الداخلية (المونولوج).." [٣٧].

فعلم النفس المعاصر يتعامل مع الحوار بوصفه مظهرًا وانعكاسًا لشخصية الإنسان، فلن نعرف محتوى الإنسان النفسي إلا من خلال ما يقدمه في تفاعله مع الآخرين، وهذا لا يعني أن هناك مرضًا نفسيًا أو شذوذًا في النفس يتم رصده وعلاجه، بل هذا يتم ضمن منظومة التربية الحديثة وعلم النفس أساسها، التي

---

٣٥) السابق، ص٤٨٣.

٣٦) موسوعة العلوم الاجتماعية، تحرير : ميشيل مان، ترجمة : د. عادل مختار الهواري، د. سعد عبد العزيز مصلوح، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، ص١٣١.

٣٧) موسوعة علم النفس، رولان دورون، فرانسواز بارو، الطبعة الأولى، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص٣٣٦.

تعطي المجال الواسع للفرد منذ طفولته إلى التعبير عن ذاته ورغباته وتطور مستوى تحصيله ونموه العقلي والنفسي.

وهناك نمطان، من **التفاعل الاجتماعي الحواري**، مركزان حول نمطين من أنماط الاتصال: اللفظي، وغير اللفظي؛ "فالاتصال اللفظي قد يكون شفاهيًا أو مكتوبًا، حيث الاتصال المنطوق عادة ما يكون مصحوبا بإشعارات غير لفظية (CUES) لابد من وضعها في الحسبان عند التفسير الكامل للرسالة، ومثل هذا الاتصال غير اللفظي يطلق عليه أحيانًا شبه الاتصال والذي قد يُستخدم أيضًا بمفرده مثل الغمز بالعين أو تقطيب الوجه أو المصافحة الحارة، كما أن الإشارات غير اللفظية قد تتم بوعي أو من غير وعي، مثل العبوس والتهلل وأمارات الحب أو المقت، وغير ذلك [٣٨].

فهل من الممكن أن نحلِّل موقفًا حواريًا شفاهيًا، دون تحليل ملامح الوجه وتعبيراته ؟ إن النظرة – مجرد النظرة – لها "تأثير في بعض الأحوال والظروف والمواقف. فللنظرة قوتها التأثيرية في حدود النشاط النفسي والتقائه مع الشخصية"[٣٩].

وهذا يعني أن الحوار يتجاوز الإطار اللفظي المعتاد، في ضوء المنهجية العلمية الحديثة، ليتم دمج كل ما يتداخل ما الحوار –بوصفه رسالة– من إشارات ونبرات صوتية وتعبيرات الوجه والجوارح، وهذا متحقق بشكل كبير في أحاديث الرسول ﷺ، فالأحاديث ليست مجرد عبارات وكلمات تلقى، إنها معبرة عن موقف ذي مضمون فكري وعقدي وتربوي وإرشادي، وفي كل موقف كان الرسول ﷺ: حاضرًا بكامل جسده: لفظًا ووجهًا وأعضاء، وهذا ما سيتم التطرق إليه بعد ذلك.

ومن المهم التفرقة بين الحوار والجدال والجدل، **فالجدال** Eristic هو: "المراء المتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، وقوامه استعمال الاستدلالات المموهة،

٣٨) انظر : موسوعة العلوم الاجتماعية، ص١٣١.

٣٩) دائرة المعارف السيكولوجية، عبد اللطيف شرارة، دار صادر،ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٤م، ج١، ص٤٠٣، ٤٠٤.

والحجج السفسطائية، فلا غرو إذا قيل أن أصحاب هذا الفن يفنّدون كل شيء دون إثبات شيء، وأهم المدارس التي اشتهرت بفن الجدال عند اليونانيين مدرسة الميغاريين" (٤٠)

فالجدال هو المظهر السلبي للحوار، فهناك طائفة من الناس معروفون بكثرة الكلام، والقدرة على طرح الأسئلة، وإثارة الشك، واختراع الحجة ونقيضها، المهم إبراز موهبتهم الكلامية، والتشكيك في القضايا المطروحة، وعدم الوصول إلى نتيجة: علمية، فكرية، أو حقيقة، أو مبدأ. وهؤلاء قد يكونون سببًا في انهيار المجتمعات، وتشتت الأفكار، ووهن المبدعين، ولننظر إلى المجتمع اليوناني القديم الذي كانت المناقشة والحوار عنوانين لفلسفته وانتشرت حتى كادت تصبغ المجتمع كله: غنيه وفقيره، علمائه وطلابه بطبيعتها، عندما تطورت الأمور فيه إلى المراء الفلسفي؛ انهار المجتمع ثقافيًا وفكريًا.

وكان السبب في ذلك طائفة السوفسطائيين، وقد كانت آثارهم الإيجابية في ابتكارهم علم القواعد والمنطق، وهم الذين ارتقوا بفن الجدل وحللوا أشكال الحوار وعلّموا الناس كيف يكشفون الخطأ المنطقي، وكيف يمارسونه، فشغف الشعب بالمناظرة والاستدلال، فزادوا الأفكار وضوحًا ودقة، ويسَّروا انتقال المعرفة انتقالاً صحيحًا (٤١). أما آثارهم السلبية فتبدو في حبهم الشديد للمال، حيث جعلوا الجدل وقواعده وفنونه مهنة للارتزاق وليس لطلب العلم، وإيجاد تراكم معرفي، كما أنهم لم ينقلوا لطلابهم الأخلاق الطيبة والفلسفة الخلقية، فغرق الشباب في الملذات، وتحقيق الرغبات والشهوات بأية وسيلة، وأصبح الشاب السوفسطائي يبرِّر شهوانيته حسبما يراه هو بعقله، ويرى أن فضائل النفس تتحقق في انطلاق العقل، فانهمك الناس في الماديات، متحللين من قيود الأخلاق، وجادلوا في كون الأخلاق خرافة إنسانية، وأن الحق هو القوة، وقاسوا الأمور بمعيار فردي، فلا قيود لضمير

٤٠) المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص ٣٩٠.
٤١) نفسه، ص٢١٧.

أو دين، وانعكس ذلك على المجتمع، فكثر التهريج السياسي والاحتيال على القانون[٤٢].

ونرى الفيلسوف اليوناني"أفلاطون" قد استنفذتْ هذه الحُمى الفلسفية قواه، بعد أن دامت هذه الحال ستين عامًا من الجدل، وكان يحسد "مصر" على إيمانها الديني واستقرار أفكارها وهدوئها[٤٣]، والفيلسوف "سقراط" كان طيلة حياته مُعجبًا بالطُرق الجدلية للفيلسوف "زينون"، وقد أتعب نفسه وقومه لتحمسه لهذه الطريقة، إلى أن اضطر قومَه لقتله ليريحوا عقولهم من جدله[٤٤]، وقد اتهم سقراط السوفسطائيين أنهم يموهون الخطأ بزخرف المنطق ويقنعونه بقوة البلاغة، واحتقرهم لكونهم يتقاضون أجورًا على عملهم [٤٥].

والفيلسوف "زينون" نفسه الذي وضع أُسس المناظرات والجدلية وعلّمها السوفسطائيين، أدرك في شيخوخته أن المراء لا طائل منه، فانقلب إلى رجل ذي حكمة عظيمة، وعلم غزير، وأخذ يشكو من الفلاسفة الذين حملوا مزاحه العقلي في أيام شبابه محمل الجد (أي جداله) [٤٦].

وقد وجد أمثال هؤلاء –وكانوا مجرد أفراد– في عهد الرسول ﷺ، وارتَدُوا مسوح الدين، وكان يشككون بدوافع عدة، منها التحبيط واليأس، ونشر الإرجاف والخوف، والتشكيك في الدعوة وفي القرآن الكريم، ووسم الرسول ﷺ بالكهانة والسحر... وقد تعامل معهم الرسول ﷺ حُسن المعاملة، وحاورهم وأقنع من حولهم، وظلوا هم على تشكيكهم وجدالهم.

وهناك **الجدل** Dialectic ويقصد به: "فن الحوار والمناقشة، قال أفلاطون: هو الذي يحسن السؤال والجواب، والغرض منه الارتقاء من تصور إلى تصور، ومن

---

٤٢) انظر : المرجع السابق، ص٢١٨، ٢١٩.

٤٣) قصة الحضارة، ول وايرايريل ديورانت، المجلد السابع، (حياة اليونان)، دار الجيل، بيروت، دون طبعة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ص١٩٥،

٤٤) السابق، مج ٧، ص١٩٩.

٤٥) السابق، مج٧، ص٢١٩.

٤٦) راجع : المرجع السابق، مج٧، ص١٩٩.

قول إلى قول؛ للوصول إلى أعم التصورات وأعلى المبادئ. فالعلم يُكشَف بطريقة الحوار" (٤٧)

إذن الجدل مصطلح لعلم يعني بالطرق والإجراءات التي يتبعها المحاور وتشمل طرح الأسئلة، وإثارة العقل، وعصف الذهن، للوصول إلى حقيقة أو مبدأ أو لُبِّ قضية أو ترسيخ خُلُق أو تعزيز مفهوم. وبعبارة أخرى يمكن أن نسمي الجدل: المنهج العلمي للحوار، فالحوار يهدف إلى: "توليد الأفكار الجديدة في ذهن المتكلم، لا الاقتصار على عرض الأفكار القديمة، وفي هذا توضيح للمعاني، وإغناء للمفاهيم؛ يفضيان إلى تقدّم الفكر" (٤٨).

وهذا الفن عميق الجذور في الثقافة الإسلامية، وقد بدا واضحًا فيما يُسمى **علم الكلام** الذي يعرِّفه ابن خلدون رحمه الله أنه: "معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم... فإنه لما كان من باب المناظرة في الرد والقبول متسعا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابًا، ومنه ما يكون خطأ؛ فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابًا وأحكامًا يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول"(٤٩). وقيل فيه أيضًا: "إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه"(٥٠).

فقد ربط ابن خلدون بين فن الجدال، والحياة الثقافية في المجتمع المسلم حيث تعددت وتنوعت المذاهب الفقهية والكلامية فكثرت المناظرات والمحاججات، وهذا طبيعي عندما تتماوج الأفكار وتكثر النظريات، وتتعدد الفرق، وترغب كل طائفة في نشر أفكارها، ودحر مخالفيها. وقد يأخذ الجدل المتكلمَ فيبالغ في الاستدلال، أو يقدم الحجة الخطأ، والدليل التافه، فاتفق على وضع قواعد بين المتناظرين، تكون مقاييس للوصول إلى الحقيقة، وهذا هدف المناظرة، كيلا تتحول إلى سفسطة،

٤٧) المعجم الفلسفي، ص ٣٩١.
٤٨) السابق، ص٥٠١.
٤٩) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، تاريخ العلامة ابن خلدون،عبد الرحمن بن خلدون، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٧م، ط٣، مج ١، ص٨٢٠.
٥٠) نفسه، ص٨٢١.

وذلك مستقى من القرآن الكريم، فنحن أمة النص المقدس، الحاكم لحياتنا، وهو العاصم لنا من الزلل والزيغ.

ويسمى علم الكلام أيضًا بـــ"علم التوحيد" نسبة إلى أحد أجزائه والمشتغلون بهذا العلم تارة يُسمَّون بالمتكلمين وتارة بعلماء التوحيد، والفرق بين الفلسفة وعلم الكلام أن الفلسفة تبحث في الوجود من حيث هو موجود بحثًا عقليًا خالصًا، على حين أن علم الكلام يبحث في الوجود بحثًا مبنيًا على صريح العقل وصحيح النقل بحيث تكون عقائد الدين بمنجاة من شُبَه المبطلين، ويعتمد علم الكلام على النظر العقلي في إثبات العقائد الإيمانية المسلمة من الشرع [٥١].

وقد تطور هذا العلم، ودخل في ميدان الدعوة عبر ما يسمى علم الكلام، وهو العلم الذي: "يتضمن الحُجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد" [٥٢]. وهذا هدفٌ – بلا شك – نبيل، وقد وضع المتكلمون المسلمون قواعد رائعة في الاستدلال والاحتجاج، ويمكن أن تكون ملهمة إذا تمَّ تفعيلها بشكل بنّاء وحيوي، في الرد على الطاعنين والمخالفين والمتشككين في الإسلام[٥٣] ولكن حدث إسراف كبير لدى المتكلمين حين اختلطت مباحثهم بمسائل الفلسفة، فصار لا يتميز أحد الفنين عن الآخر ولا يحصل عليه طالب من كتبهم [٥٤].

---

٥١) المعجم الفلسفي، م س، ج٢، ص٢٣٥، ٢٣٦. ويضيف المؤلف " الغرض من علم الكلام الدفاع عن حياض الدين بالرد على المبتدعة، قال الغزالي : لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه...، تشوق المتكلمون إلى محاولة الزب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها " ا. هـ، ومن هنا بدأ هذا العلم في الانحراف عن أهدافه.

٥٢) تاريخ ابن خلدون، مج١، ص٨٢١.

٥٣) يجدر بالذكر أن هناك العديد من البحوث التي تعني بكيفية الاستفادة من هذه المناهج، منها على سبيل المثال دراسة الدكتور رزق يوسف الشامي المعنونة بـ " استلهام قواعد علم الكلام في الرد على العلمانيين والملحدين " رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨٩م، ويستلهم الباحث فيها قواعد علم الكلام بشكل إيجابي كي تكون نبراسا في الرد على ادعاءات الملاحدة والشيوعيين والعلمانيين المعاصرين.

٥٤) تاريخ ابن خلدون، ج١، ص٨٣٧. ويذكر أنهم تعمقوا في مباحثهم فابتعدوا عن أهدافهم، وخاضوا في التنزيه الإلهي، وحدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والإرادة والحياة...، وقضوا بأن القرآن مخلوق وذلك بدعة صرّح السلف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة، وحول بعض الخلفاء حمل الناس عليها، وخالفهم أئمة السلف واستحل الخلاف لخلافهم وضاعت أموال كثيرة وأهدرت دماء. انظر ابن خلدون، ص٨٣٢.

إذن، فقد تميزت الحضارة الإسلامية بوجود أُسس وقواعد وعلوم الاحتجاج والاستدلال، ولكنها ارتبطت بلُبِّ الإسلام وعقيدته، فنبعتْ من تصوراته، وسعتْ إلى الذود عنه، وعند انحرافها وجدت من علماء الشريعة ما يدين انحرافها، وينصح العامة والخاصة باجتناب هذا الزيغ، وهذا ما يميِّز الثقافة الإسلامية في كون أحكام الشريعة هي البوصلة التي تعدِّل المسار، وتنذر الربّان بالخطر، كي ينجو الناس جميعًا.

وفي المبحث التالي سيتم تناول شخصية الرسول ﷺ وأبرز ما يميز هذه الشخصية: علمًا وفِكرًا ولُغةً وأخلاقا، فسنته الشريفة موضوع البحث، وحواراياته كانت وستظل ملهمة للأمة المسلمة خاصة، والإنسانية عامة.

openkan.com

المبحث الثالث

تميز شخصية الرسول ﷺ

لُغةً وخُلقًا وحوارًا

عند النظر إلى منهج الحوار في السيرة النبوية وأشكاله وقضاياه، ندرك كيف كان الحوار هو الأساس الذي اعتمده الرسول ﷺ في الدعوة ونشر أحكام الإسلام وتعميقه في الأفئدة، وفي صناعة القرار وتشكيله مع صحابته الأبرار، وفي طريقة تنفيذ القرار، وهنا لا ندرس الحوار بوصفه حوارًا صادرًا عن عالم أو أديب، وإنما صادر عن رسولٍ مُرسَل من الله جلّ وعلا، تهيأتْ في شخصيته كثيرٌ من العوامل المميزة، التي جعلته يتبوأ مكانة سامية؛ شهد له بها الكافر قبل المسلم، الحكيم قبل البسيط، المرأة والرجل والطفل، هذه المميزات في شخصية الرسول ﷺ جعلتْ حواراته تتسم بالصدق والبلاغة والحكمة والهدى، ويمكن أن نجمل هذه المميزات في النقاط الآتية:

١) تكامل شخصية الرسول ﷺ:

لقد كانت شخصية الرسول ﷺ شديدة التميز على المستوى الإنساني والعقلي والقيادي، ثم تمت المنة الكبرى بالرسالة الإلهية المنزلة، وهذا ما يؤكده الشيخ محمد أبو زهرة في وصفه لشخصية الرسول بقوله: "لم يتوافر العقل في إنسان كما توافر في محمد بن عبد الله، ولو لم ينزل عليه الوحي، ويُخَاطَب من السماء، لكان عقله وحده كافيًا لأن ينشئ دولة، ويقيم مجتمعًا طيبًا فاضلاً، ولكن أتمَّ الله عليه نعمته فجعله نبيًّا مرسلا، فاجتمع له الكسب الذاتي، بالإدراك، بالفطرة الإنسانية العالية المكتملة، بالتكوين الإنساني، والرسالة الإلهية الهادية المرشدة... وما كانت إحداها لتغني عن الأخرى"[٥٥].

٥٥) خاتم النبيين، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ج١، ص٢٣١.

فالسمات السابقة تجلي كيف كان الرسول متميزًا إنساناً وقائدًا وبليغاً قبل الدعوة، وهذا من إعداد الله تعالى له، حتى يكون أهلاً لحمل الرسالة، وهو ما يؤهله لقيادة العرب بالحكمة، وتكوين مجتمع فاضل معهم، ولكنه مجتمع إنساني فحسب، أما وقد نال منة الله بالهداية والقرآن، فقد جمع ما بين القوة الإنسانية والإرشاد الرباني.

ويرى البعض أن الرسول محمد ﷺ لم يكن متميزًا وسط قومه في مكة بشيء ذي بال في عُرف العرب في الجاهلية؛ "فلم يكن بالشاعر الذي يرنن أوتار القلوب، ولا بالخطيب الذي اختلب أهواء النفوس، ولا بالعالم الذي يستهوي شهوات العقول، ولا بالفارس الذي يلجأ إليه في حماية الحوزة في حرب... فلم يُعرَف بشيء مما كان العرب يعولون عليه في منازعاتهم ومكاثراتهم وممانتاتهم (مبارياتهم) ومنافراتهم" [٥٦]، ولكن الميزة التي تميز بها عن جيله؛ ميله الواضح إلى السكينة والوقار والتفكير كلما تقدمت به السن، وهي مظهر لِمَا استتر في نفسيته من نزوع إلى أفق الروح، والاتصال بعالم الملأ الأعلى، وما لازمت هذه الصفة نفسًا بشرية إلا وجهتها هذا التوجيه الروحي على قدر ما فيه من قوة [٥٧].

ربما يكون الرأي السابق مقبولاً بشكل أولي، ولكن هناك مجموعة كبيرة من المؤشرات في شخصية الرسول ﷺ الدالة على أنه متميز في أعماقه، ثم جاءت البعثة والتكليف الإلهي لتظهر هذه المواهب، ومن هذه المؤشرات: تصرفه الحكيم في حادثة وضع الحجر الأسود في الجاهلية؛ فلما تهدم البيت الحرام بفعل سيل شديد، واجتمع أهل مكة على بناء الكعبة بنفقة ليس فيها مهر بغي ولا بيع ربا حتى تمَّ البناء ثماني عشرة ذراعًا، اختلف أشراف قريش عندما أرادوا وضع الحجر الأسود، في من يضعه، وتنافسوا في ذلك ورفعوا السيوف، ودام الخصام أربع ليالٍ، وكان أسنّ رجل في قريش إذ ذاك أبو أمية بن المغيرة المخزومي، عم خالد بن الوليد، جاء فقال لهم: يا قوم لا تختلفوا وحكّموا بينكم من ترضون بحكمه،

٥٦) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، محمد فريد وجدي، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٨٦.
٥٧) السابق، ص٨٧.

فقالوا نكل الأمر لأول داخل، فكان هذا الداخل هو محمد بن عبد الله، فاطمأن الجميع له؛ لما يعهدون فيه من الأمانة وصدق الحديث فلما أخبروه بالخبر بسط رداءه وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه، وأخذه ووضعه فيه[٥٨].

فهذا الموقف يشير إلى المكانة الطيبة التي احتلها الرسول ﷺ في الجاهلية، وهي ليست بمكانة زعيم قبيلة ولا خطيب ولا شاعر وإنما هي مكانة: أخلاقية؛ فهو الصادق الأمين، ومكانة عقلية؛ فقد كانوا يحتكمون إليه في أمورهم، ومكانة نسبه الطيب في القبيلة، وقد جاء تصرفه في حل هذه المشكلة ليضع حدًّا لفتنة بين بطون مكة، كان يمكن أن تكون نارًا تحرق أبناءها وتفنيهم؛ هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنه من المنطقي أن يكون الرسول غير ذي زعامة ومنصب في هذا المجتمع، حتى لا يكون منغمسًا في حياتهم بمثالبها ومآخذها، حتى إذا جاءته البعثة من الله تعالى، ظهرت المعجزة الربانية في شخصه الكريم، فهو ليس بشاعر فيُتَهم بتأليفه آيات القرآن، وهو أمي ولم يطلع على كتب الأمم السابقة حتى يوردها فيما يقول، قال تعالى: { **وَمَا كُنْت تَتْلُو مِنْ قَبْله مِنْ كِتَاب وَلَا تَخُطّهُ بِيَمِينِك** }[٥٩] وصدق الله تعالى وهو يقول عن المبعوث رحمة للعالمين مبرئًا إياه من الاطلاع على الكتب السابقة، فقد تلقى العلم كاملاً من الله تعالى:

{ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ**

٥٨) جاءت قصة تجديد الكعبة الشريفة في مصادر عدة منها : نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري، دار الجيل ببيروت ودار عمار بعمّان، ط١، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٧م، ص٢١-٢٣ وقد حقق روايات عدة عن الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في المستدرك، والطبراني، وراجع أيضا : صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٨٢٩) رواية جابر بن عبد الله.

٥٩) سورة العَنْكَبُوت، الآية (٤٨).

فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [٦٠].

جاء في تفسير الآيتين الكريمتين تفرد الرسول بهذه الصفة "لِأَنَّهُ لَا يُعْلَم لِلَّهِ رَسُول وُصِفَ بِهَذِهِ الصِّفَة -أَعْنِي الْأُمِّيّ- غَيْر نَبِيّنَا مُحَمَّد صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[٦١]

وهو ﷺ صادق أمين لا يتوقع منه الكذب ولا الاحتيال، وليس بخطيب معروف لأنه غير مشارك في الجاهلية وتجمعاتها بما فيها من ملذات ومنهيات، وليس زعيم قبيلة أو بطن لأن الزعامة تأتي لشخص يتم التوافق عليه من رجال قبيلته أو بطنه، وهذا يعني أنه يوافقهم في معتقداتهم ويقر أخلاقهم وإن ساءت، وهذا لم ولن يحدث من شخص الرسول ﷺ الذي كان كثيرًا ما كان يدين معتقداتهم وأصنامهم التي لا تنفع ولا تضر، ولا يشرب الخمر ولا يعرف طريق الغانيات، فابتعاثه كان عنوانًا على الإعجاز الإلهي في ظهور مواهبه الخاصة: الأدبية والحوارية وقدرته على الإقناع، وكونه نموذجًا في الخُلُق والهدي الكريم، وعنوانًا لزعامة وقيادة نبوية تخالف ما درج عليه الناس من زعامات قبلية، أساسها التعصب القبلي والثروة والجاه. فإذا كان الناس في الجاهلية غير مكترثين بمحامد الرسول ﷺ، "فإننا نستطيع أن نعرفها بما عرف عنه بعد النبوة والتفاف الناس حوله، ونقلهم كل شاردة وواردة من أعماله وأخلاقه، والحكم على ما كان عليه إنسان من أحوال وآداب في أول أدواره، بما عرف عنه منها بعد وصوله إلى قمة المجد، وبلوغه مراميه يكاد لا يعدو الحق... فكل ما دُوِّن عن محمد ﷺ بعد مبعثه من شمائل وآداب كانت لاشك له وهو في ميعة الصبا وعدم استكمال سنِّ النبوة، وقد دُوِّن من شمائله أنه كان وادعًا متواضعًا، هينًّا ليِّنًا، يلقى أصحابه هاشًا باشًّا لا يترفع عنهم بل يؤثرهم على نفسه، ولا يسمح لهم بتعظيمه ولا تقبيل يده "[٦٢] وهذه الصفات لا تجتمع لزعيم قبيلة جاهلية ولا لشريف من أشرافهم، فهي صفات الخلق المتكامل، والنبوة الصادقة.

---

٦٠) سورة الأعراف، الآيتان (١٥٧- ١٥٨).

٦١) تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، سورة الأعراف، الآية (١٥٧).

٦٢) السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة، ص٨٧، ٨٨.

٢) وفور عقل الرسول ﷺ:

لم يكن الرسول ﷺ فيلسوفًا ولا أديبًا، ولا مؤلفًا، إنه صانع أمة، ومكوِّن شعب، ونبي مرسل، يحمل ما تنوء الجبال بحمله، وهو رسالة القرآن. فلا يمكن أن نتعامل مع الرسول – في حواریاته– بكونه مفكِّرًا أو فيلسوفًا، وإنما نتعامل معه بوصفه نبيًا مرسلاً، مربيًّا أمة كانت خير أمة أُخرِجتْ للناس. وهذا ما يفارق به الرسول ﷺ الفلاسفة والمفكرين وقادة الشعوب فالعقل الإنساني يضلُّ ويصيب، مهما توافرت له من معلومات وقيم، أمَّا لو تسلح بالهداية الإلهية، فلا مجال للخطأ ولا سبيل للزيغ. "إنما العقل يدبر ما يحيط به وهو من غير هداية الوحي لا يفكر إلا فيما بين يديه، ولا يخترق الحجب والأستار إلى ما وراء ما لديه، فلابد من علم الله يمده بعلم القابل وهو عالم الغيب والشهادة"(٦٣).

وقد فطن الفقهاء القدامى إلى تميز شخصية النبي ﷺ، كما أوجزه القاضي عياض في نعته للرسول: "أمَّا وفور عقله وذكاء لُبِّه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال حركاته، وحُسن شمائله فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمَّل تدبيره أمرِ بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة مع عجيب شمائله وبديع سيره" (٦٤). فمثل هذه الشمائل لا تتوافر لشخص عادي، وإنما لشخص مميز ملهم موحى إليه، فدومًا نجد في عباقرة البشر أنهم متميزون في أمور ولديهم قصور في أمور أخرى، أما هذا التكامل الخلقي والجسدي والروحي والعقلي واللساني فلا يتحقق إلا في شخصية أُعدَّت ورُبيت بيدِّ الله تعالى.

ولنتوقف عند سِمَّة العقل لدى المبعوث ﷺ، يقول القاضي عياض: ".. فضلاً عما أفاضه من العلم، وقرَّره من الشرع، دون تعلم مسبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه لم يمتر في رجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة" (٦٥).

---

٦٣) خاتم النبيين، ص ٢٣١.

٦٤) الشفاء، القاضي عياض، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، دون تاريخ ج١ ص٤٣

٦٥)الشفاء، ص٤٣.

لا نجد فيما سبق تميزًا بشريًا، بل المنة الإلهية، فكيف تأتت هذه القدرات العقلية للرسول وهو الأُمي، الذي لم يمتلك قدرة القراءة، حتى يطالع الكتب الدينية السابقة، والمعارف والعلوم والحكمة، فهذا أدلٌ على إلهام الله تعالى لرسوله الكريم. وقد قال وهب بن منبه: "قرأتُ في أحد وسبعين كتابًا فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأيًا. وفي رواية أخرى: فوجدت في جميعها أن الله لم يعطِ جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا" [٦٦]. إن هذا الإجماع على التميز العقلي للرسول ﷺ، يجعل محبتنا للرسول وإيماننا به تشمل التعلق الروحي إلى التأمل والدرس في شخصية خاتم الأنبياء فهي جامعة للكمال البشري في المنظور الفلسفي والنفسي والعقلي، والوحي الرباني.

ويضاف إلى هذه السمة، ثقته ﷺ بالله تعالى، وهي منعكسة على تمسكه بالدعوة إلى أن يهلك دونها، "فقد كان جامعًا للمحبة والثقة كأفضل ما تجتمعان، وكان مشهورًا بصِدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه" [٦٧]. إن هذه السمة تعطي ثباتا لمن حول الرسول ﷺ الذين يتعرضون للمحن والتعذيب، وعندما يضاف إليها المحبة لمن حوله من الصحابة الأبرار وكل من يدخل الدعوة جديدًا، تصبح مزيجًا من الثبات والاطمئنان والارتباط في طريقٍ واحد.

٣) بيئة الرسول ﷺ اللغوية وتكوينه الأدبي:

كان الرسول ﷺ ذا لسان عربي فصيح، ولا عجب في ذلك، فقد نشأ في قريش وهي من أفصح اللهجات العربية، وكان يحضر أسواق مكة، ويتذوق ما يُنشد فيها من أشعار، وعاش رضاعته في بني سعد بهوازن وهوازن من أفصح قبائل العرب وكما يقول إسماعيل بن عبد الله: " أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم: أن قريشًا أفصح العرب

٦٦) نفسه، ص٤٣.
٦٧) عبقرية محمد، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢ ١٩٦٩م ص٣٣.

ألسنةً، وأصفاهم لُغةً، وذلك أن الله جلَّ ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمدًا ﷺ فجعل قريشا قُطّانَ (ساكني) حَرَمِه، وجيران بيته الحرام، وولاته" [٦٨] فقد تميزت قريش مكانةً في رعايتها بيت الله الحرام، ولُغةً في استواء لسانها، وهذا ما جعل لغتها العربية منتشرة بين عموم قبائل الجزيرة العربية، بحكم المكانة الروحية لقريش، وقد كانوا يسمون قريشًا "أهل الله؛ لأنهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام، ولم تشبهم شائبة، ولم تنقلهم عن مناسبهم ناقلة" [٦٩].

والنصوص الشعرية الواردة من الشعر الجاهلي تدل دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحى، كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم؛ رغم أن المستشرقين شككوا في هذه اللهجة وفي أصلها، وسعوا إلى نفي لهجة قريش وادعوا ادعاءات مختلفة في هذه اللهجة الفصيحة المستقرة في الشعر الجاهلي وبها نزل القرآن الكريم، ولكن الواضح أن هذه الآراء تعتمد على الفرض والحدس وقد أراد بها أصحابها أن يناقضوا أشد المناقضة ما استقر في نفوس أسلافنا من أن هذه اللهجة الفصحى إنما هي لهجة قريش التي نزل بها الذكر الحكيم[٧٠] وقد رفض المستشرقون أيضًا نظرية العرب في كون الفصحى عين اللهجة القرشية، فقد ذهبوا يطلبونها في لهجات القبائل النجدية، متناسين أن شيوع لهجة ما يقترن بحالة سياسية أو روحية أو حضارية، بحيث تصبح لغة الفكر والشعور للجماعة الكبرى، وهذا ما تحقق في لهجة قريش فقد كانت مكة مهوى أفئدة العرب في الجاهلية، وكان لها نفوذ واسع بسبب مركزها الروحي ونفوذها الاقتصادي لكونها مركز التجارة وملتقى القوافل والأسواق [٧١]. وهذا من السنن اللغوية أن تتفوق لهجة أو

٦٨) الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فرسي بن زكريا، شرح وتحقيق : السيد أحمد صقر، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، يوليو، ٢٠٠٣م، ص٣٣.

٦٩) نفسه، ص٣٣.

٧٠) انظر : العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف مصر ١٩٦٠، ص١٣١-١٣٢

٧١) العصر الجاهلي، ص١٣٣.

لغة ما، لعوامل عدة، وقد توافرت هذه العوامل لقريش بجلاء وهي عوامل خارجية أي تتصل بظروف جغرافية (موقع مكة)، وتجارية (ملتقى الأسواق)، وروحية (وجود الكعبة). وهناك عوامل لغوية تتصل بمسلك قريش اللغوي، فقد كانت "مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب. ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس" [٧٢]. فليس بمستغرب أن تكون لُغة قريش هي الفصحى التي عمَّتْ في الجاهلية لتشمل كل القبائل العربية شمالاً وغربًا وشرقًا وفي اليمامة والبحرين، وسقطت إلى الجنوب في اليمن لتكون في لغة حمير، وعندما قدمت الوفود إلى الرسول ﷺ كان يحاورها وهم يفهمونه دون مشقة، وسرعان ما فهموا القرآن الكريم بمجرد سماعه، وحتى اللهجات التي نزل بها القرآن الكريم كانت لهجات القبائل الأقرب إلى قريش، ومن هنا جاءت فصاحتها وحجية الاستشهاد بها، وقيل إن لغة قريش نفسها تستوعب اللهجات السبع للقرآن [٧٣]. ومن المنطقي أن تعدد القراءات القرآنية، واللهجات التي نزل بها القرآن الكريم، ليدل على أن القرآن كان مفهومًا لدى القبائل العربية، وتناقلوه فيما بينهم، قبل أن يغدوا إلى الرسول ويسلموا، فقد كانوا يتناقلون الأشعار؛ وهي مصاغة على لغة قريش، وأيضًا تناقلوا السور القرآنية، وتذوقوا بلاغتها وهداها، لأنهم يعرفون لغة قريش جيدًا، فلما قابلوا الرسول، وسمعوا بلاغته في حواراته، دخلوا الإسلام أفواجًا، خاصة أنهم وجدوا في شخصية الرسول ﷺ تكاملا في التكوين اللغوي والبيئي والعربي، فقد جمع ما بين الحضارة النسبية (التمدين) في مكة، وفصاحة وبساطة أهل البادية، بجانب فهمه عاداتهم وتقاليدهم، وطريقة تفكيرهم، وسُبل تلقيهم المفاهيم والتصورات والمدركات، كما أنه ﷺ علم الكثير

٧٢) الصاحبي في فقه اللغة، م س، ص٣٣، ٣٤.
٧٣) راجع : العصر الجاهلي، ص١٣٤- ١٣٥.

عن لهجات القبائل العربية، واختلافها. وقد كان محمد ﷺ "خبيرًا بالنفوس ومعادنها، والدنيا وأطوارها، والزمان وتقلبه، والأديان الأولى وما عانت وعانى رجالها، وهم يشقون طريقهم في الحياة، وعقول الأنبياء من ورائها فطر مجلوة وإلهام لمَّاح، فكيف بشيخ الأنبياء الذي تعهده القدر من نشأته ليحمل رسالة معجزة في أسلوبها، وأسلوبها يقوم على الفطر وتفتيق الألباب" (٧٤).

فإذا كانت هذه سماته التي بانت في سيرته العطرة، وأقواله النضرة، وأحاديثه الشريفة، فكيف أوتيها ؟ إنها من تأديب الله تعالى له، وهذا سرٌّ الإعجاز الرباني في شخصية النبي، وكما قال المصطفى ﷺ: (أدَّبني ربي فأحسن تأديبي)، ليكون في شخصيته نموذجًا للنبوة الحقة التي لم تلوثها التقاليد والعادات الحضرية أو البدوية، فهو: "لم يتلق علمًا على راهب أو كاهن أو فيلسوف ممن ظهروا على عهده، ولكنه بعقله الخصب وفطرته الصافية، طالع صحائف الحياة، وشؤون الناس، وأحوال الجماعات، فعاف منها ما ساءه من خرافة، ونأى عنها، ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم" (٧٥).

٤) الخطاب النبوي في المنظور الشرعي:

وهي سمات اتفق العلماء عليها – تقريبًا – قديمًا وحديثًا، وعند المقارنة بين أقوالهم جميعًا، نلاحظ إعجابهم الشديد بهذه السمات، وهي ناتجة عن تميز شخصيته أخلاقيًا، ووفور عقله واتزانه النفسي، وتكوينه اللغوي بمنابعه الأدبية الثرية المستقاة من عيون الشعر الجاهلي وأدبه، وهذه نراها جلية في كتب صحاح الحديث، والموثق من السيرة النبوية الشريفة. فقد شهدوا للرسول ﷺ أنه أفصح الناس منطقًا، ينطق بالحكمة وفصل الخطاب، فهو إذا أرشد كانت ألفاظه كالجوهر، تنثر بين الناس من غير بهرجة وفيها جوامع الكلم (٧٦).

---

٧٤) فقه السيرة، محمد الغزالي، راجع أحاديثها الشيخ محمد ناصر الألباني، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٧، ص١٩٧٦م، ص٥٤.

٧٥) السابق، ص٧٣.

٧٦) خاتم النبيين، م س، ص ٢٣٦.

ويقول القاضي عياض عنه: " وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل، سلامة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم وخُصَّ ببدائع الحكم، وعلم سنة العرب، فكان يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها (لهجتها)، ويباريها في منزع بلاغتها... ومن تأمل حديثه وسيره، علم ذلك وتحققه، وليس مع قريش والأنصار وأهل الحجاز فحسب، فنجد كلامه مع وطيفة الهندي، وقطن بن حارثة العليمي، والأشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندي، وغيرهم من أقيال حمير وملوك اليمن " [٧٧].

و**خطاب الرسول** ﷺ: له الكثير من السمات، والمحددات التي تجعله موضع بحث ودراسة، ونهجًا يُتبَّع إلى قيام الساعة، يقول الماوردي: "وأمَّا خطاب الرسول لأمته فيما بلغهم من رسالة ربه، بعد ظهور معجزته والإخبار بنبوته، وشروحه للأمة، فمعتبر بخمسة شروط: أحدها: العلم بانتفاء الكذب عنه فيما ينقله عن الله تعالى من خبر، أو يؤديه من تكليف. والثاني: أن يعلم من حاله أنه لا يجوز أن يكتم ما أُمِر بأدائه"[٧٨].

ونلاحظ أن الماوردي يتناول خطاب الرسول ﷺ من الوجهة الشرعية، وهذا هو الأساس الأول الذي ينبغي أن نتعامل معه مع أحاديث الرسول ﷺ، فهو المصدر الثاني للتشريع في الإسلام، وهذا يستلزم أن نتلقى كل ما صدر عنه بعد البعثة بهذا المنطق، وهذا أساس يتصل بتوقيت المروي عن الرسول، وهو بعد التكليف بالرسالة، وليس قبلها، أما المحدد الأول فيتصل بالقبول القلبي من الجماعة المسلمة، وبالتسليم المطلق أن كل ما يصدر عن شخص الرسول ﷺ صادق، ومصدر للتشريع، والمحدد الثاني متصل باعتقادنا عن محمد الإنسان والرسول فهو لا يمكن أن يكتم ما أُمر بتبليغه من الله تعالى، وكلا المحددين يرسي طريقة تلقي المسلمين لما يصدر عن الرسول دون شك أو تكذيب.

---

٧٧) الشفاء، ص٤٤١.

٧٨) أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تقديم وشرح : محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ص٤٩.

ويضيف الماوردي: "... والثالث: أن ينتفي عنه ما يقتضي التنفير من قبول قوله، لأن الله تعالى حماه من الغلظة، وكان أولى أن لا ينفر عن قبول خطابه"[٧٩]. وهذا محدد يتصل بطريقة القول والسلوك للرسول ﷺ، فليست البلاغة وحسن التأليف اللفظي، وهداية القول، وشرف القصد والمعنى فحسب، بل إن الأمر يتصل بالذات المصدرة القول، في سلوكها الحياتي، وأخلاقها اليومية، فكيف يتعلم الناس من شخص جاف غليظ خشن التعامل، سيء الخلق ؟! وهنا كان الرسول النموذج في الأخلاق الحسنة.

والمحدد "الرابع أن يقترن بخطابه ما يدل على المراد به لينتفي عنه التلبيس والتعمية في أحكام الرسالة" [٨٠]، وهذا يتصل بألفاظ الخطاب النبوي، وطريقة صياغتها، فالرسول ﷺ واضح العبارة، تراكيبه بسيطة، مغلفة كلماته بالسهولة، بعيدة عن الإلغاز، وهذا متصل بطبيعة المتلقين له فهم عامة الناس وخاصتهم، فينبغي أن يكون الخطاب على درجة من البساطة مع البلاغة في استقطاب قلوبهم، وإقناع عقولهم. ويؤكد الماوردي هذه المناحي وهو يتناول قضية الإبهام والإفهام في الخطاب النبوي فيقول: "المفهوم أربعة: النص، وفحوى الكلام، ولحن القول، ومفهوم اللفظ. وفحوى الكلام ما دل على ما هو أقوى من نطقه [والمقصود: الهدي الشريف في كلماته]، ولحن القول ما دل على مثل نطقه [وهي الكلمات المؤدية للمعنى كما يجب]، ومفهوم اللفظ مأخوذ من معنى نطقه [الوضوح وسهولة التلقي]، فهذه الأربعة مفهومة المعاني بألفاظها، مستقلة بذواتها، معلومة المراد بظواهرها، فلا احتياج بعد البلاغ إلى بيانه" [٨١]. فلا يحتاج السامع / المتلقي إلى شرح لما يقوله المصطفى، وكيف له ذلك والرسول معلم، مفسر، شارح للقرآن وهدي الإسلام، فهل يحتاج المعلم الماهر إلى شارح له ؟!

٧٩) السابق، ص٥٠.
٨٠) أعلام النبوة، ص٥٠.
٨١) السابق، ص٥٠.

وقال اللّه تبارك وتعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } [٨٢] ويعلق الجاحظ على هذه الآية الكريمة بقوله: لأنَّ مدار الأمر على البيان والتبيُّن وعلى الإفهام والتَّفهُّم وكلّما كان اللّسانُ أبْيَنَ كان أحمدَ، كما أنّه كلما كان القلبُ أشدّ استبانةً كان أحمد، والمفهمُ لك والمتفهِّم عنك شريكان في الفضل، إلاّ أنّ المفهِم أفضل من المتفهِّم وكذلك المعلِّم والمتعلِّم هكذا ظاهرُ هذه القضية وجمهور هذه الحكومة إلا في الخاصّ الذي لا يُذكَر والقليلِ الذي لا يُشهرَ"[٨٣].

والمحدد "الخامس: العلم بوجوب طاعته، ليعلم بها وجوب أوامره "[٨٤] وهذا المحدد هو الناتج المنطقي والمحصلة النهائية للمحددات الأربعة السابقة عليه، فبعدما اكتملت عناصر الخطاب النبوي: الصدق، الإبانة، الترغيب وطيب الخلق، السلاسة في القول، يكون المحدد الخامس متصلا بالمستقبل/ المتلقي المسلم، الذي يجب عليه أن يتلقى هذا الخطاب بالقبول والتطبيق، واتباع هديه، دون معارضة أو نفي.

٥) الآيات القرآنية والخطاب النبوي:

جاءت آيات القرآن الكريم عن الرسول ﷺ مركزة على أخلاقه العليا، وأنه نعم الأسوة لأصحابه وللعالمين جميعًا، فكانت الآيات الكريمة شهادات ربانية في أخلاق الرسول العليا، ونلاحظ أن الآيات التي تناولت الشمائل المحمدية جاءت بصيغة تقريرية مباشرة، تثبت الخلق الكريم، وتنفي الغلظة والجفاء، وتوصي بالتراحم والمشاورة وحسن الخطاب.

فالمولى تبارك وتعالى ينعت نبيه من فوق سبع سموات بشهادة ربانية: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [٨٥] وقد جاء في تفسير الآية: إنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام،

---

٨٢) سورة إبراهيم، الآية (٤).

٨٣) البيان والتبيين، الجاحظ، أبو عثمان بن بحر، نشر : موقع المكتبة الإسلامية قسم التراث الإسلامي، http://www.al-eman.com، ج١.

٨٤) أعلام النبوة، ص٥٠.

٨٥) سورة القلم، الآية (٤)

أو لعلى أدبٍ عظيم وكما وسمت السيدة عائشة ﵂ المصطفى بقولها: "كان خُلُقه القرآن" وفي رواية: أجابت السيدة عائشة عن سؤال وجّه إليها "كيف كان خُلُق الرسول؟ فقالت للسائل: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خُلُق رسول الله ﷺ كان القرآن" (٨٦).

وهذا دليل على أن الرسول كان متمثلاً مطبقاً لهدي القرآن وتعاليمه، واتخذه سجايا وسلوكًا له، وكما يشير ابن كثير إلى أن: "خلقًا تطبّعه ﷺ وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعلَه، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل(٨٧).

وفي رواية أخرى، عن أبي الدرداء ﵁ قال: سألتُ عائشة عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: "كان خُلقه القرآن يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه". وردَّتْ على سؤالٍ آخر، قالت: كان خُلق رسول الله ﷺ القرآن ثم قالت: أتقرأ سورة المؤمنين إلى العرش، قال: نعم، قالت: هكذا كان خُلق رسول الله ﷺ (٨٨).

ويتوقف الشهيد سيد قطب – هو يستظل بالقرآن – عند النعت الرباني لرسوله بأنه على خُلق عظيم فيقول إن هذه الآية "تحمل الشهادة الكبرى والتكريم العظيم... وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم ﷺ، ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود، ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود" (٨٩).

وتبرز عظمة الرسول ﷺ في هذه الآية الكريمة في عدة نواحٍ: "تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال، يسجلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله. وتبرز من جانب آخر، من جانب إطاقة

---

٨٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٤، ص ٤٧٦ ، وكان السائل للسيدة عائشة رضي الله عنها هو سعد بن هشام.

٨٧) السابق، ج٤، ص ٤٧٧.

٨٨) شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، الإمام ابن كثير، تحقيق : مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٧م، ص٥٨، ٥٩.

(٨٩) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، دون تاريخ، ج٦، ص ٣٦٥٦.

محمدﷺ لتلقيها، وهو يعلم من ربه هذا، قائل هذه الكلمة. ما هو؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته؟ ما مداها؟ ما صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين. إن إطاقة محمد ﷺ لتلقي هذه الكلمة من هذا المصدر، وهو ثابت، لا ينسحق تحت ضغطها الهائل – ولو أنها ثناء – ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب.. تلقيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن.. هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل"(٩٠).

وفي قوله تعالى: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً }(٩١) نعتٌ للرسول بأنه أسوة حسنة، فهذه الآية: "أصلٌ كبيرٌ في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله... أي هلاّ اقتديتم به وتأسيتم بشمائله"(٩٢) فالأُسوة هي القدوة، والرسول كان الأنموذج الأنقى والأصفى لأصحابه، وهو في دعوته ليس منظِّرًا فيلسوفًا بضاعته الكلام، بل مربيًا هاديًا داعيًا، قولاً وفعلاً، وسلوكًا طيبًا في قدوته لأصحابه، وتنبه الآية الكريمة الجماعة المؤمنة الراجية رضا الله والنجاة يوم القيامة أن تتأسى بالرسول ﷺ، في حياتها.

وروى البراء بن عازب، قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسن الناس خلقًا". وقال أيضًا: "إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق"(٩٣).

يقول المولى تعالى أيضًا: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (٩٤). تعطي الآية الكريمة وصفًا عامًا لأخلاق الرسول في تعامله مع الجماعة المؤمنة، ورغم أن مناسبة نزولها هي مخالفة بعض صحابة رسول الله ﷺ لأوامر الرسول في غزوة أحد مما تسبب في الهزيمة، ولكننا نرى القيادة الحكيمة من قِبَل الرسول ﷺ لأصحابه بالخلق الطيب، والقلب

---

(٩٠) السابق، ص٣٦٥٦.
(٩١) سورة الأحزاب، الآية (٢١).
(٩٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٣، ص٥٣٤.
(٩٣) شمائل الرسول ودلائل نبوته، ابن كثير، ص٥٩.
(٩٤) آل عمران، الآية (١٥٩)

الرحيم[٩٥]. وتركّز الآية الكريمة على أن الرحمة خلق أودعه الله تعالى في قلب رسوله، ولفظ "رحمة" يخصصها، إلا أن أبا حامد الغزالي يرى أن الآية دالة على "حسن الخُلُق" بشكلٍ عام [٩٦] وهي رؤية عامة، فحسن الخلق في الآية يتفق مع مناسبة النزول، فإن حسن معاملة الرسول لمن خالفوا أوامره لا يقتصر على خلق الرحمة، بل ينصرف إلى أخلاق أخرى، يستلزمها التعامل في مثل هذه المواقف مع المخالفين وهم من الصحابة عليهم الرضوان، وهذا ما كشفت عنه الآية الكريمة {وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ } فلفظة: "فظ" – لغةً – بمعنى: قاطع القرابة [٩٧] وبمعنى الغلظة والعنف والجفاء [٩٨]، و"غليظ القلب" هو من لا يتأثر بمن حوله ولا يقيم لهم وزناً، فقد ربطت الآية الكريمة خلق الرحمة بأخلاق أخرى، تمثل دعائم لمفهوم الرحمة، ومظاهرها وتشمل: لين الجانب، والتواضع للناس ومغفرة زلاتهم.

وهذا ما أكده الزمخشري بقوله: ".. ومعنى الرحمة: ربطه على جأشه وتوفيقه للرفق والتلطف بهم حتى أثابهم غمًّا بغمٍّ وآساهم بالمباثة بعد ما خالفوه وعصوا أمره وانهزموا وتركوه (ولو كنت فظًا) جافيًا، (غليظ القلب) قاسيه (لانفضوا من حولك) لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم، (فاعف عنهم) فيما يختص بك، (واستغفر لهم) فيما يختص بحق الله إتمامًا للشفقة عليهم (وشاورهم في الأمر) يعني في أمر الحرب ونحوه" [٩٩].

وفي قوله تعالى: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }[١٠٠]. يتوجه خطاب الآية الكريمة إلى الجماعة المؤمنة، يذكّرهم المولى تعالى أن محمدًا ﷺ من نفس جنسهم ومن أصلهم، أي عربي

---

(٩٥) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م، ج١، ص٢٠٢.
(٩٦) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، الدار العلمية، بيروت، د ت، ج٢،ص٨٢.
٩٧) أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق : عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ص ١٦٣.
(٩٨) أساس البلاغة، ص٣٥٥.
(٩٩) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة،١٣٨٥هـ، ١٩٦٦م، ص٢١٦.
١٠٠) سورة التوبة، الآية (١٢٨).

قرشي، مبلغاً رسالة الله تعالى، ويشق عليه عنتهم (العنت: المشقة ولقاء المكروه) ويعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشقيها، وهو ﷺ حريصٌ على هداية أمته، يبغى النفع الدنيوي والأخروي لها [١٠١] ولفظة "حريص" –لغويًا– تدل على شدة مراد الشيء والمبالغة في الاستمساك به، وصيانته ابتغاء النفع والخير له [١٠٢]، وهي ذات إيحاء نفسي؛ والمعنى دقيق، فالرسول يتفطر قلبه على الكافرين، فما بالنا بشعوره نحو المؤمنين الذين اتبعوه، وما بالنا بقومه وهو على قرابة ونسب معهم، وهو في كل ذلك يخاطبهم برفق، حتى يتسلل الإيمان إلى قلوبهم، ويشعرون بسمو الهداية.

وفي قوله تعالى: **{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }**[١٠٣]. فالله تَعَالَى يأمر رَسُوله مُحَمَّدًا صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَدْعُو الْخَلْق إِلَى اللَّه بِالْحِكْمَةِ. قَالَ اِبْن جَرِير وَهُوَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنْ الْكِتَاب وَالسُّنَّة وَالْمَوْعِظَة الْحَسَنَة أَيْ بِمَا فِيهِ مِنْ الزَّوَاجِر وَالْوَقَائِع بِالنَّاسِ ذَكَّرَهُمْ بِهَا لِيَحْذَرُوا بَأْس اللَّه تَعَالَى وَقَوْله "وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن" أَيْ مَنْ اِحْتَاجَ مِنْهُمْ إِلَى مُنَاظَرَة وَجِدَال فَلْيَكُنْ بِالْوَجْهِ الْحَسَن بِرِفْقٍ وَلِين وَحُسْن خِطَاب كَقَوْلِهِ تَعَالَى "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْل الْكِتَاب إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ" الْآيَة فَأَمَرَهُ تَعَالَى بِلِينِ الْجَانِب كَمَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى وَهَارُون عَلَيْهِمَا السَّلَام حِين بَعَثَهُمَا إِلَى فِرْعَوْن فِي قَوْله "فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّر أَوْ يَخْشَى" وَقَوْله "إِنَّ رَبّك هُوَ أَعْلَم بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيله" الْآيَة. أَيْ قَدَّمَ عِلْم الشَّقِيّ مِنْهُمْ وَالسَّعِيد وَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْده وَفَرَغَ مِنْهُ فَادْعُهُمْ إِلَى اللَّه وَلَا تُذْهِب نَفْسك عَلَى مَنْ ضَلَّ مِنْهُمْ حَسَرَات فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْك هُدَاهُمْ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِير عَلَيْك الْبَلَاغ وَعَلَيْنَا الْحِسَاب "إِنَّك لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْت" "لَيْسَ عَلَيْك هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّه يَهْدِي مَنْ يَشَاء" [١٠٤].

---

(١٠١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص٤٥٩.

(١٠٢) لسان العرب، مرجع سابق،، مادة حرص ج٧، ص١١، ولفظة "حريص "، صيغة مبالغة على وزن فعيل.

١٠٣) سورة النحل، الآية(١٢٥)

١٠٤) تفسير ابن كثير، م س، ج٢، تفسير الآية ١٢٥ من سورة النحل.

٦) سمات أسلوب الرسول ﷺ:

للرسول ﷺ سمات أسلوبية متعددة في حواره نطقا وأداء، يمكن أن نجملها في سمتين:

الأولى: الفصاحة:

تميز أسلوب الرسول اللغوي بسمة الفصاحة، وهي التي جعلته شديد التميز حين يحادث الناس ويحاورهم. ففصاحة منطوق الرسول يشكلّ جزءا من تحديه للكافرين، بحكم تأثره ﷺ بالإعجاز القرآني في البلاغة والتأليف، وبالبيئة اللغوية المحيطة به، وهي عالية الذائقة، سريعة الفهم والتلقي، ولننظر إلى مستوى الشعر الجاهلي الذي كان نموذجا في النظم الرفيع، فلما جاء القرآن بآياته أعجز العرب، ولما رأى المسلمون بيان الرسول ﷺ وفصاحته تعلقوا بمصاحبته، ورغبوا في الحوار معه في كل زمان ومكان، وقد كانت فصاحته ﷺ وسيلة مضافة للإقناع بأيسر عبارة، وأرقى طرح، وأفصح أسلوب.

والفصاحة "صفة تجتمع لكلام، ولهيئة النطق بالكلام ولموضوع الكلام.. أما فصاحة محمد فقد تكاملت له في كلامه، وفي هيئة نطقه بكلامه وفي موضوع كلامه" (١٠٥) وهذا يعني أن الفصاحة لا تقتصر على طريقة النطق العربي الفصيح، والرسول نموذجًا فيها بنطقه السامي للألفاظ العربية، فقد كان محمد ﷺ: "أعربي اللسان، فله من اللسان العربي أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة وهذه هي فصاحة الكلام، فقد كان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه، واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها، فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم" (١٠٦). كذلك لا تقتصر على اختيار الكلمات العربية الصافية المنبع دون تكلف أو توعر، والرسول هو قدوة البلغاء في الكلمات المنتقاة، بل يضاف إليها المعنى السامي الشريف،

١٠٥) عبقرية محمد، العقاد، م س، ص٣٠.
١٠٦) عبقرية محمد، ص٣١.

وهذا ما يبزُّ فيها المفكرين والمصلحين والفلاسفة، ذلك أنه كان مرسلاً من الله تعالى، بأعظم رسالة، وأثقل أمانة.

يقول الله تعالى: {**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**}[١٠٧]. يَقُول تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَمَا يَنْطِق مُحَمَّد بِهَذَا الْقُرْآن عَنْ هَوَاهُ {**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**} يَقُول: مَا هَذَا الْقُرْآن إِلَّا وَحْي مِنَ اللَّه يُوحِيهِ إِلَيْهِ. قَوْله: {**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**}: أَيْ مَا يَنْطِق عَنْ هَوَاهُ {**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**} قَالَ: يُوحِي اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى جَبْرَائِيل , وَيُوحِي جِبْرِيل إِلَى مُحَمَّد صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقِيلَ: عَنَى بِقَوْلِهِ: {**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**} بِالْهَوَى [١٠٨]. وجاء في تفسير القرطبي: "قَدْ يَحْتَجّ بِهَذِهِ الْآيَة مَنْ لَا يُجَوِّز لِرَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الِاجْتِهَاد فِي الْحَوَادِث. وَفِيهَا أَيضًا دَلَالَة عَلَى أَنَّ السُّنَّة كَالْوَحْيِ الْمُنَزَّل فِي الْعَمَل"[١٠٩].

وبالتالي تكون الفصاحة وفقًا للمفهوم السابق ذات أضلاع ثلاثة: هيئة النطق العربي الأصيل، روعة التركيب وأصالة اللفظ وجمال التعبير، عظم المعنى وتساميه.

السمة الثانية: المنطق العذب:

فقد كان الرسول ﷺ ذا جاذبية خاصة لمستمعيه، كلامًا، وأسرعهم أداءً، وأحلاهم منطقًا. وهذا له تأثير كبير في جذب الآذان، وانفتاح القلوب، ورهافة العقول، لذا كان الناس يسعون إلى مصاحبته أطول الفترات، استئناسا بحديثه، وإفادةً من هديه. يقول الإمام ابن القيم: "إن كلامه يأخذ القلوب، ويسبي الأرواح، ويشهد له بذلك أعداؤه، وكان إذا تكلم تكلم بكلام مفصل، مبين، يعدّ العاد ليس بهذا مسرع، ولا يحفظ، ولا منقطع تخلله السكتات بين أفراد الكلام، بل هديه فيه أكمل الهدي" [١١٠]، وكما تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم

---

١٠٧) سورة النجم، الآيتان (٣، ٤).
١٠٨) تفسير الطبري، مصدر سابق، سورة النجم الآيتان ٣، ٤.
١٠٩) تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة النجم، الآيتان ٣، ٤.
١١٠)) زاد المعاد في هدي خير العباد، الإمام شمس الدين بن أبي بكر، بن قيم الجَوزيَة، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ج١، ص٦٦.

هذا، ولكن كان يتكلم بكلام يبينه فصل، يحفظه من جلس إليه، وكان كثيرًا ما يعيد الكلام ثلاثا ليُعقَل عنه" (١١١). وهذا يعني أن الرسول ﷺ كان:- يتكلم بوضوح دون تقعر أو غموض في المعنى أو اللفظ.

- كلامه قليل اللفظ، غير مكثر.
- يتمهل في نطقه دون إسراع يضيع المعنى ويفقد السامع التواصل، أو بطء يملّ السامع، ويفقده الانتباه.
- كان يعيد كلامه حتى يعي السامع مقولته، وهذا ما أدى لحفظ أحاديثه في الصدور، وتناقلتها الألسنة بنصها.

أيضًا، كان المصطفى ﷺ "طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم... لا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه. وكان يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين، ومصلحتهم" (١١٢). وهذا يعني أن الرسول ﷺ كان:

- سمته الصمت، والصمت يعطي هيبة كبرى لصاحبه، ويجعل الآذان تنصت حينما يهم بالكلام.
- ليس ثرثارا، وإنما يتكلم إذا سئل، أو كانت له حاجة.
- إذا تكلم فو ذو نطق واضح، تظهر الكلمات بوضوح في حديثه.
- يتكلم بالخير، وهذا مفتاح الثواب من الله، لأنه داع للهدى والخيرات.

يراعي القضايا الآنية التي تهم من أمامه، فلا يتكلم بما ليس في حاجة المخاطب من هموم أو تساؤلات.

وفي الفصل الثاني، سيتم تناول أبرز الأشكال التي جاء حوار الرسول ﷺ، وهي متعددة بتعدد المواقف والأشخاص والموضوعات.

---

١١١) السابق، ص٦٦.
١١٢) السابق، ص٦٨.